

زرياب في المصادر العربية القديمة دراسة مقارنة

د. حمود مضعان محارب عيال سلمان^(*)

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان الدور الذي قام به زرياب في مجال الغناء والعزف، وتحديد أبعاد هذا الدور ودلالاته.

اننتظم البحث في مقدمة وجزأين؛ تناول الأول حياة زرياب (173-243هـ) مولده واسمه ونسبه ولقبه وتعلمه الموسيقى والغناء ببغداد ورحيله عنها إلى المغرب والأندلس ومكانته عند أميرها عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ).

أما الثاني فنناقش الآداب والفنون التي أتقنها زرياب، ومنها الغناء والموسيقى والآداب وفنون الأطعمة والملابس التي نقلها إلى الأندلس. وانتهى البحث بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصل إليه، وتقييما لدور زرياب ومكانته العلمية والفنية.

* جامعة مؤتة.

Ziriab in the Ancient Arabic Resources

Hamod median mohairb

Abstract

This study aims to investigate the role of Ziriab as a singer and musician. The study comes in an introduction and two chapters. The first chapter deals with Ziriab's life. The chapter discusses his birth, education, profession and trips to Morocco and Al-Andalus. It also sheds light on his relationship with Abdul – Rahman Al - Awsat.

The second chapter deals with the skills that he had, especially singing, music, arts and design. The study is concluded by a review of his works and skills.

حياة زرياب:

مقدمة:

كان زرياب من الشخصيات المثيرة في تاريخ العرب في الأندلس، خاصة في مجال الغناء والموسيقى، ومع ذلك فلم يحظ بما يستحقه من بحث ودراسة تكشف عن دوره في هذا المجال، ومن هنا جاء هذا البحث ليكشف عن الدور الذي قام به في مجال الغناء والعزف وتحديد أبعاد هذا الدور ودلالاته.

وقد اعتمد هذا البحث على ما أمكن الوصول إليه من مصادر تاريخية معاصرة لحياة زرياب (173-243هـ / 789-857م) أو التي تلي تلك الحقبة.

وانتظم البحث في مقدمة وجزأين؛ تناول الأول حياة زرياب؛ مولده واسمه ونسبه ولقبه وتعلمه الموسيقى والغناء ببغداد ورحيله عنها إلى المغرب والأندلس ومكانته عند أميرها عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ / 821-852م)، وناقش الجزء الثاني الآداب والفنون التي أتقنها زرياب، ومنها الغناء والموسيقى والآداب وفنون الأطعمة والملابس التي نقلها إلى الأندلس. وانتهى البحث بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصل إليه وتقييماً لدور زرياب ومكانته العلمية والفنية.

أولاً- حياته:

اسمه ونسبه ومولده:

ذكر ابن حيان القرطبي (ت 469هـ / 1076م) في كتابه "المقتبس"، وتبعه في ذلك المقرئ التلمساني (ت 1045هـ / 1635م) في كتابه "نفح الطيب" أن زرياب لقب أطلق على علي بن نافع أبي الحسن، مولى الخليفة المهدي العباسي (154-169هـ / 775-785م)، تلميذ إسحاق الموصلي⁽¹⁾، غير أن القول بأنه مولى الخليفة المهدي لا يمكن قبوله؛ إذ إن ابن حيان نفسه ذكر أن زرياب توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وسنه سبعون سنة وشهور زائدة⁽²⁾، وعليه يكون مولده ببغداد سنة 173هـ / 789م في خلافة الرشيد (170-193هـ / 786-808م)، وقد يكون أبوه نافع هو مولى الخليفة المهدي.

لقبه:

ورد في معجم لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ / 1312م) أن الزرياب (بتشديد الزاي، وتسكين الراء، وضم الباء) تعني الذهب الأصفر من كل شيء⁽³⁾، وذكر ابن حيان القرطبي سببين لهذا اللقب؛ قال في الأول: أطلق على علي بن نافع في بلده العراق من أجل سحمة لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله، تشبيهاً له

بطائر أسود حسن التغريد، وفي السبب الثاني قال - نقلا عن الشاعر عبادة -: "بل زريّاب اسم للذهب، لقب به هذا المغني لما كان لونه لون الذهب"⁽⁴⁾، والراجح أن هذا اللقب أطلق على علي بن نافع بسبب لون بشرته المائل إلى السواد، يؤكد ذلك ما ذكره ابن حيان عن قصة جرت مع الأمير عبد الرحمن الأوسط بحضور زريّاب؛ إذ قال ابن حيان: "... فلم يطل الأمد حتى ركب الأمير عبد الرحمن في خاصته إلى الرصافة، فأصعد من هناك على سفح الجبل يطلب صيد العقاق⁽⁵⁾، فحمل باشقا⁽⁶⁾ له على كفه ما هرا بصيدها، فأعيا عليه وجدانها، وحرص على الظفر بشيء منها فلم يتح له، حتى قال لأصحابه: من جاعني بطير منه فله حكمه، فتقدم إليه ابن الشمر يركض، فقال له: أيها الأمير، لا تتعنّ بطلب عمق، فهو ذلك بقربك، قال: وأين تراه؟ قال: زريّاب يطلي استه ويبطه بقليل شرار فيجيء عمق لا تنكره، فاستغرق الأمير ضاحكا من قوله، وقال لزريّاب: هذا يدلك على أن المزاح والترقيع خلق قد غلب على ابن الشمر لا يثنيه عنه رغب ولا رهب، فما الذي تراه؟ فقال له زريّاب: هو ما قاله سيدنا، وأنا أشهد الله من حضرنا ألا أعدّد عليه شيئا، فليقل ما بدا له"⁽⁷⁾.

إضافة إلى ذلك ذكر ابن عبدربه ذكر أن زريّاب كان عبدا أسود، وذلك حين قال: "وكان لإبراهيم [يعني الموسيقي إبراهيم الموصلي (ت 188هـ)] عبد أسود يقال له زريّاب"⁽⁸⁾.

كما أن زريّاب نفسه قد تمثّل بعنترّة الفوارس المعروف بسواد بشرته، وذلك حين غنى أبياتا من شعر عنترّة يقول فيها:

فإن تك أمي غرابية	من أبناء حام بها عبتي
فإني لطيف ببيض الطبا	وسمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى	لقدتك في الحرب أو قدتني ⁽⁹⁾

دراسته فن الغناء:

تتلمذ زريّاب على يد لمغي العراقي إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأخذ عنه فنون الغناء والعزف، واستطاع بما يتّمتّع به من قدرات عقلية فائقة أن يتعلم كل ما لدى أستاذه من الفنون، بل إنه زاد عليه، وفي هذا قول ابن حيان واصفا زريّاب: "... تلميذ لإسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت 235هـ/850م) كبير المغنين في وقته، تلقف من أغانيه استراقا وهدى من فهم الصناعة وحذق العمل مع طيب الصوت وجودة الطبع إلى ما فاق به إسحاق، وإسحاق لا يشعر به لكتمانه إياه، ففتح عليه في حذقه لما يخترع من صناعاته"⁽¹⁰⁾.

ولم يكتف زريّاب في الدراسة على إسحاق الموصلي، بل تعدى ذلك ليدرس

فنون الغناء والأصوات على إبراهيم الموصلي والد معلمه إسحاق؛ إذ ذكر ابن حيان نقلاً عن زرياب قوله: "أمر الخليفة الرشيد إبراهيم بن ميمون الموصلي أن يعد له أصوات الغناء، ففعل واجتهد، فبلغ أربعة آلاف صوت، فأمر أن يختار له مائة صوت، ففعل وانتقى، ثم أمر أن يتخير منها خمسين، ثم عشرة، ثم خمسة، ثم ثلاثة اقتصر عليها، غناها زرياب في أكمل صناعة، وكان يسميها النوبة اليتيمة؛ هي:

[البسيط]

القصرُ والنخلُ والجماءُ بينهما أشهى إلى القلبِ من أكنافِ جيرون

[الطويل]

تشكي الكميّ الجري لما جهده بين لو يستطيع أن يتكلما

[الكامل]

يا دارُ عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دارَ عبلة واسلمي⁽¹¹⁾

استطاع زرياب أن يتقن الغناء على أيدي الموصليين، حتى عده ابن خلدون تلميذهم الذي تفوق عليهم، مما دعاهم إلى التخلص منه بصرفه إلى المغرب⁽¹²⁾.

رحيله من بغداد إلى الأندلس:

مكث زرياب في بغداد منذ ولادته حتى رحل منها يتعلم فنون الغناء والعزف، حتى أصبح متقوفاً على أستاذه إسحاق الموصلي الذي بدأ يستشعر ذلك، وقد تباينت آراء المؤرخين في وقت رحيله عن بغداد وسببه، فذكر ابن القوطية (ت367هـ) في كتابه "تاريخ افتتاح الأندلس"، أن زرياب كان من المقربين إلى الخليفة العباسي الأمين (193-198هـ/809-813م)، وعندما قتل الأمين، أخذ المأمون (198-218هـ/813-833م) على زرياب عدة أشياء؛ ففر إلى الأندلس⁽¹³⁾، في حين أرجع ابن حيان وقت رحيل زرياب إلى فترة خلافة هارون الرشيد، وذكر أن الرشيد أحب أن يسمع من غير إسحاق، وطلب منه أن يأتيه بمن يتوسم فيه الجادة وحسن الصوت، فبذل على زرياب واصفاً إياه بأحسن العبارات؛ إذ قال عنه: "... وإني سمعت له نزعات حسنة ونغمات رائعة بالنفس ملتاطة، إذا أنا أوقفته على ما أستغرب منها ونصصته بمن قلده إياه قال لي: هو من اختراعي واستباطي، ونتيجة فكري، فيطول منه عجيبي، وأحسده، وسوف يكون له شأن"، فطلب الرشيد إحضاره بين يديه، وعندما حضر بين يدي الخليفة عرف بنفسه أحسن تعريف وأبلغ وأوجز عبارات، وطلب منه الخليفة أن يغني، وأحضر له عود أستاذه إسحاق، لكن زرياب رفض أن يغني إلا باستخدام عوده الخاص، فقبل الرشيد منه ذلك، ولما

غنى أجاد، وأعجب الرشيد بغنائه حتى طار طربا لم يعهد قط مثله، وقال لإسحاق: "والله لولا أنني أعلم من صدقك لي عن كتمانك إياك لما عنده وتصديقي لك في أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذة إليك واعتن به حتى أفرغ له، فإن لي فيه نظرا"⁽¹⁴⁾.

ويبدو أن إسحاق قد أغاظه ما لقيه زريّاب من مكانة وإعجاب عند الرشيد، فقرر التخلص منه، وساعده على ذلك صغر سن زريّاب، وعدم مقدّره على مخالفة أمر أستاذه، فأمره إسحاق بمغادرة بغداد إلى بلاد المغرب، فغادرها متجها نحو المغرب، وعندما سأل عنه الرشيد استطاع إسحاق أن يصرف نظر الخليفة عنه بحجة أنه رجل مخبول، دفعه تأخر جائزة الخليفة عنه إلى ترك بغداد، والرحيل منها، وأنه لا يعلم إلى أين مضى، ولا أي طريق سلك، وقد أسف الرشيد لرحيله، وقال لمن معه: قد فانتنا منه سرور كثير⁽¹⁵⁾.

ويظهر أن زريّاب قد غادر بغداد في خلافة المأمون (198-218هـ/813-833م)، أو في خلال الحرب بين الأمين والمأمون، كما ذكر ابن القسوطي، ولم يغادرها في خلافة الرشيد كما ذكر ابن حيان⁽¹⁶⁾؛ إذ إنه لما وصل إلى الأندلس كان قد أنجب ثلاثة أولاد، وبما أن مولده كان عام 173هـ/789م، فمن غير المحتمل أن يكون قد تزوج وعمره لا يتجاوز خمس عشرة سنة، فيتمكن من إنجاب هؤلاء الأولاد الثلاثة قبل وصوله إلى الأندلس سنة 206هـ/822م⁽¹⁷⁾، كما أنه ليس من المعقول أن تطول رحلته من بغداد إلى الأندلس لتستمر ثلاث عشرة سنة على أقل تقدير، حتى لو افترضنا أنه قد ترك بغداد في آخر سنة من خلافة الرشيد عام 193هـ/809م، وأنه مكث في القيروان مدة من الزمن.

ومهما يكن من أمر، فإن زريّاب قد اتجه نحو المغرب، باحثا له عن مكان آخر، بعيدا عن بغداد. وقد انفرد ابن عبد ربه صاحب "العقد الفريد" بالقول: إن زريّاب استقر به المقام في مدينة القيروان عاصمة دولة الأغالة التي كان يحكمها آنذاك زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (201-223هـ/817-838م)، لكن مقامه فيها لم يدم طويلا، فقد غضب منه زيادة الله بسبب غنائه أبياتا لعنّرة الفوارس يقول فيها:

فإن تك أمي غرابية	من أبناء حام بها عيتي
فإني لطيف ببيض الظبا	وسمر العوالي إذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى	لقدتك في الحرب أو قدتني

فأمر زيادة الله على أثر ذلك بصفع قفاه وإخراجه، وقال له: إن وجدتكَ في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك⁽¹⁸⁾.

فقرر زرياب الرحيل إلى الأندلس التي كان يحكمها الأمير الأموي الحكم ابن هشام (180-206هـ/797-822م)، فبعث زرياب رسائل يخبره فيها عن حاله وما يعرفه من فنون الغناء وإجادته لهذه الصناعة، ويستأذنه في الدخول إلى الأندلس، فرحب الأمير الحكم به، وأذن له في الدخول. وعندما قرر الرحيل إلى الأندلس بحرا وصل إلى الجزيرة الخضراء المقابلة لشواطئ الأندلس، علم بخبر وفاة الخليفة الحكم بن هشام واعتلاء ابنه عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ/822-853م) الإمارة مكانه، فحزن حزنا شديدا لهذا الخبر، لكنه عاد وبعث بكتاب إلى الأمير عبد الرحمن مع المغني منصور اليهودي (رسول الحكم إلى زرياب)، يعزیه بوفاة والده، ويعلمه فيه بحاله، ويسأله إيواؤه بظله، فرحب الأمير بقدمه، ودعاه إلى دخول الأندلس وأكرمه⁽¹⁹⁾.

مكانته عند الأمير عبد الرحمن الأوسط:

حظى زرياب بمكانة مرموقة عند الأمير عبد الرحمن الأوسط، وبدأت ملامح احترام الأمير وتقديره لزرياب فور سماعه برغبته في العبور إلى الأندلس، فرحب به، وكتب إلى عامله على الجزيرة الخضراء يأمره بحسن ضيافته ومرافقته في سفره إلى الأندلس. وعند وصوله إلى الأندلس أمر الأمير عبد الرحمن كبار فتيانه الخاصة بملاقاته، والترحيب به، وأن يدخل البلد ليلا صيانة للحرم، وأنزله في دار الصداقة بعد فرشها بأفخر أنواع الفرش والأقوات والإدام⁽²⁰⁾ والأصباغ، ورتب له الخدم ليقوموا على خدمته ورعاية شئونه، وكان وصول زرياب إلى الأندلس في شهر محرم سنة سبع ومائتين⁽²¹⁾.

أصبح زرياب من خاصة الأمير عبد الرحمن وجلسائه وندمائه، فقد أعجب الأمير به أشد إعجاب لفصاحته وسعة علمه وحسن صوته، وأمر كاتبه الخاص أن يعقد لزرياب صكا بإجراء مائتي دينار راتبا شهريا، وأن يجري لبنينه عشرين دينارا لكل منهم⁽²²⁾، وأن يجري عليه من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكل عيد ألف دينار، ولكل مهرجان ونيروز خمسمائة دينار، وأن يقطع له الطعام في المدى بقرطبة للعام الهلالي ثلاثمائة مدى⁽²³⁾، ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما قوم بأربعين ألف دينار⁽²⁴⁾.

وعندما سمعه الأمير وجالسه، سحر بصوته وبراعة صناعته وحكمته وثقافته، فطرح كل غناء سواه، وغلب على قلبه، فأحبه حبا شديدا، فلم يكن يصبر عنه في جميع أوقاته، ولا يسأم سماعه، حتى فتح له بابا خاصا يوصله إلى منزل زرياب إذا ما أراد السماع إليه خارج مجالس الشراب⁽²⁵⁾.

ولقد علت مكانة زريّاب عند الأمير عبد الرحمن، حتى فوّض إليه أكثر أمور العقد والحل، وذلك لهجرته إليه، وحسن غنائه، وتناهيه في الإطراب وحنائه⁽²⁶⁾. إن هذه المكانة العظيمة لزريّاب عند الأمير عبد الرحمن أغاظت كبار خاصة الأمير، وقد صرح الفقيه عبد الملك بن حبيب (ت238هـ/853م) ببغضه حين قال:

صلاح أمري والذي أبتغي هين على الرحمن في قدرته
ألف من الصفر وأقلل بها لعالم أوفى على بغيته
زريّاب قد يأخذها قفلة وصنعتي أشرف من صنعته⁽²⁷⁾

كما الفقيه والشاعر يحيى الغزال (ت250هـ)، فقد أغاظته مكانة زريّاب عند الأمير عبد الرحمن؛ وهو مما دفعه إلى هجائه بهجاء مقذع، تخرج ابن دحية (ت633هـ) من ذكره في كتابه "الطرب من أشعار أهل المغرب"⁽²⁸⁾، ويبدو أن مكانة زريّاب في الأندلس فاقت كل وصف، حتى وصلت أخباره إلى مغني الخليفة العباسي الذي حسده عليها، فقد ذكر الطبري (ت310هـ) أن علوية مغني الخليفة المأمون (198-218هـ/813-833م) رافق المأمون في سفره إلى الشام، فطلب منه المأمون أن يغني، فغنى ذاكرة مواليه الأمويين، فغضب الخليفة، فرد عليه علوية قائلاً: مولاكم زريّاب عند موالي يركب في مائة غلام، وأنا عندكم أموت من الجوع، فغضب عليه المأمون عشرين يوماً ثم رضي⁽²⁹⁾.

عائلته:

تزوج زريّاب على الأغلب في بغداد؛ إذ ذكر ابن حيان أنه عندما رحل من المغرب إلى الأندلس حمل معه عياله وولده، كما أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم، قد فرض أعطيات لأبنائه الذين وفدوا معه إلى الأندلس، ولم تذكر المصادر اسم زوجته ولا أية معلومات عن أهلها وتاريخ زواجهما ومكانه.

وكان له من الذكور ثمانية أولاد؛ هم: عبد الرحمن، وعبيد الله، ويحيى، وجعفر، ومحمد الملقب بالقنلية، وقاسم، وأحمد، وحسن، واثنان من البنات؛ هما: حمدونة وعلية. وقد تعلم أبناؤه الغناء والعزف، وكان عبد الله أحذقهم فيه، وكانت له صناعات في الألحان واختراعات في الإتقان، وقد أعجب أباه فأثنى عليه، وكان كثيراً ما يعارض أباه وإخوته فيما يصوغون من لحن ويخترعون من عزف، وبليته من حيث جودة الغناء والعزف عبد الرحمن الذي كان مغنياً مجوداً، لكنه كان شديد الإعجاب بنفسه؛ وهو مما أساء إليه وإلى غنائه، وكان محمد مغموراً لا يعرفه أحد، في حين كان قاسم أكثرهم غناء مع تجويد لصنعتة وأكثرهم تعليماً لما عنده وكذلك جعفر ويحيى، أما أحمد وحسن فكانا مقلين، لكن أحمد كان شاعراً مطبوعاً قد غنى إخوانه بكثير من شعره.

وكانت أختهم حمدونة مغنية متقدمة في أهل بيتها، محسنة لصناعتها على أختها عليّة، وقد طال عمرها حتى لم يبقَ من أبناء زرياب غيرها، وقد تزوجها الوزير هشام بن عبد العزيز⁽³⁰⁾.

ثانياً- الفنون والعلوم والآداب التي أتقنتها:

الغناء:

يعد زرياب أحد كبار المغنين في الأندلس، فقد فاق نظرائه في جميع أنحاء العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وعده المؤرخون أكثر المغنين إجادة لفن الغناء والعزف، فقال عنه ابن حيان القرطبي: "كان زرياب على تصريفة بصنعة الغناء والفهم لدقائق الموسيقى، والافتداز على تصريفه، والكشف لما غمّ، على المتقدمين من دقائقه، بمنزلة لا يفوقه فيها أحد من أهل صنعته؛ يخبطون عشواء فيما كشف له حجابيه، وقد جمع استتباطه لذلك إلى ما أخذه كابرا عن كابر، فجاء نسيج وحده، قد جمع الله فيه ما فرقه في أهل صناعته... وأن الجن كانت تأتي لزرياب في كل ليلة تعلمه فنون الغناء والعزف، فيوقظ جواريه ويعلمهن ما تلقاه من الجن، وفي الصباح ينسى ما تلقاه، فتعيده عليه جواريه، فيتذكره، ويشاع الخبر بين الناس"⁽³¹⁾. وإن كان تصديق ذلك غير ممكن؛ فإنه يعطي دلالة واضحة على مكانة زرياب في الغناء والعزف، حتى ظن أهل الأندلس أن الجن من تعلمه.

ويبدو أن زرياب كان حاذقاً في عزفه على عوده الذي صنعه بنفسه، وكان لا يرضى أن يغني إلا وهو يعزف عليه، فقد رفض أن يغني للخليفة هارون الرشيد باستخدام عود أستاذه إسحاق الموصلي، وبين للرشيد ميزات عوده، فهو وإن كان يشبه عود أستاذه من الخارج؛ قال: "لكن عودي وإن كان في قدر عوده [إسحاق]، ومن جنس الخشب، فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه، وأوتاره من حرير لم يغتسل بماء سخن يكسبها إماتة ورخاوة... صنعتها من أمعاء شبل الأسد، مما ميزها في الصفاء والترنيم والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من أمعاء سائر الحيوان... ولها من قوة الصبر على أثر وقع المضرب لها ما ليس لغيرها"⁽³²⁾.

ومن إبداعات زرياب في صناعة عوده المتقن، أنه زاد أوتار العود لتصبح خمسة أوتار، وهو الوتر المعروف بالخامس الأحمر المتوسط أو الوتر الأوسط الدموي، ووضعه تحت الوتر الثالث وفوق الوتر الثاني، فكان كالنفس في الجسد. وفي عزفه على عوده هذا اخترع زرياب مضرباً خاصاً به، صنعه من قوائم النسر معتمداً به من مرهف الخشب، للطف قشر ريشه، ونقائه على الأصابع، وطول سلامة الوتر⁽³³⁾.

وكان لزرياب طريقته الخاصة في الغناء، فقد كان يبدأ غناءه بالنشيد أول

شده⁽³⁴⁾ (الموال) بأي نقر كان، ويأتي بالبسيط إثره، ويختتم بالمحركات والأهزاج، وقد بقيت هذه الطريقة مستخدمة في غناء أهل الأندلس حتى أيام ابن حيان القرطبي (ت469هـ)⁽³⁵⁾.

عمل زريّاب على تطوير الغناء في الأندلس من خلال إنشاء ما يمكن أن نسميه اليوم معهد تعليم الموسيقى والغناء، وتولى إدارته بنفسه، فكان يخضع الطلبة المتقدمين له لامتحان قبول، فمن اجتاز هذا الامتحان دخل المعهد، ومن لم يجتزه لا يدخله، ولهذا المعهد طريقته الخاصة في تدريس الموسيقى والغناء، ويصف ابن حيان هذا المعهد وما يدور فيه فيقول: "وكان زريّاب إذا تناول الإلقاء على تلميذه أمره بالقيود على الوسائد المدورة المعروفة عندنا بالمسورة، لا بد منها، وأن يشد حبوته [وسطه] جدا، إذا كان قوي الصوت، فإذا كان لبنة، أمره أن يشد على بطنه عمامة؛ فإن ذلك مما يقوي الأسر، ويعصر الصوت، ولا يجد متسعا في الجوف عند الخروج إلى الفم، فإن كان الصّ الأضراس لا يقدر أن يفتح فاه، أو كانت عادته زَمّ أسنانه عند النطق، أمره بأن يدخل في فمه قطعة خشب عرضها ثلاثة أصابع يبيتها في فيه ليالي حتى يفرج فكاه، فيحسن مخرج الصيحة من فيه، وكان إذا أراد أن يختار المطبوع الصوت [المراد تعليمه من غير المطبوع] أمره أن يصيح بأشد صوته: يا حَجام، أو يصيح: آه، ويمدّ بها صوته، فإن سمع صوته بها صافيا قويا مؤديا مطبوعا لا تعترضه غنة، ولا حبسة، ولا ضيق نفس، عرف أنه سوف ينجب، وأشار بتعليمه، والصبر عليه، وإن وجده على خلاف ذلك أبعد، ولم يشر بالتعب معه"⁽³⁶⁾.

وقد تتلمذ عليه كثير من المغنين والمغنيات؛ منهم جواريه الثلاث: غزلان، وهنيدة، وعتبة، وكن يعرفن بالمذنيات، وجواريه اللواتي كن في قصره، وثلاث جوار كن لابن قلقل العامل الوجيه؛ هن: مصابيح، وغلّام، ووصيف، وغيرهن كثيرات⁽³⁷⁾.

الأدب والشعر والعلوم:

أجاد زريّاب كثيرا من فنون الأدب، إضافة إلى إبداعه في الغناء، فقد ذكر ابن حيان القرطبي نقلا عن الشاعر أبي بكر عبادة، قال: "كان زريّاب المغني شاعرا مطبوعا"⁽³⁸⁾، وأضاف في موضع آخر أنه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها وأنقارها. وأتقن زريّاب علم النحو على أحسن ما يكون؛ وهو مما ساعده على تحسين كلامه، ووضوح صوته، وحسن مخارج حروفه، كما أنه كان يتقن كثيرا من علوم عصره؛ منها: علم البلاغة وعلم الهيئة وعلم الأفلاك وحركاتها وعلم النجوم وعلم الجغرافيا والسياسة، حتى عده أهل الأندلس معجزة عصره، لكثرة ما حاز من فنون وعلوم، فقد قال عنه ابن حيان، وتبعه في ذلك

المقري: "كان زرياب بذاته إحدى عجائب الزمان الذي أوجده، وبخل أن يجيء بشكله علما وظرفا وفهما، ومشاركة في أكثر العلوم، وتقردا بالغناء العزيز، شأنه الذي لم يكن يبلغ مداه فيه، ولا يتعاطاه في الحذق به، فأول ذلك نظره في الهيئة وعلمه بالأفلاك وحركاتها وبالنجوم ومجاريها وتعديل طولها، وما تؤذن به من تأثيرات وأقضيته واختلاف طبائعها وأهويتها وانشعاب وأنهارها وتصنيف أممها وسكانها... وكان زرياب قد جمع كبرى خصاله هذه الشراك في كثير من ضروب الظروف وفنون الآداب ولطف المعاشرة لطبقات الناس وبراعة التميز بينهم فيها والتتريل في مخاطبتهم لديها وجرى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ومعرفة الأفانين الرئاسية على ما لم يحزه أحد من أهل صناعته"⁽³⁹⁾.

فنون التجميل والملابس:

فتن أهل الأندلس بزرياب، حتى عدوه أحد عجائب عصره، فأخذوا يقلدونه في كل ما يصنع، وكأنه معلمهم الأول، وعدوا أفعاله وسلوكياته في كل شيء، قدوة حسنة لهم ولأبنائهم من بعدهم.

فقد ذكر ابن حيان أن أهل الأندلس قبل مجيء زرياب كانوا يرسلون شعورهم جمّة (كتلة واحدة)، ويجعلون شعورهم مفروقة من وسط الجبين تتدلى إلى الصدغين والحاجبين، فلما جاء زرياب كان يعلم أهل بيته وجواريه أن يراعين شعورهن ويصفقنها ويقصرنها فلا تصل إلى وجوههن وتكون على قدر الحواجب فتشكل دائرة تصل أطرفها إلى أعلى الحواجب والأذان، فلما رأى أهل الأندلس ذلك منه ومن أهل بيته تعلموها واتخذوها سنة يتبعها الرجال والنساء، وبقيت قائمة حتى عصر ابن حيان (ت469هـ)⁽⁴⁰⁾.

ومن العطور وأدوات التجميل التي نقلها زرياب إلى الأندلس المرتك المتخذ من المرداسنج⁽⁴¹⁾ بعد أن كان ملوكهم والطبقة العليا منهم يستخدمون بذور الريحان وزهره الذي كان يترك أثرا واضحا في الثياب، زيادة على أنه لا يخلصهم من الروائح المنبعثة من الإبط، فهداهم زرياب إلى استخدام المرداسنج بعد دهنه بالملح وتبييض لونه، فيمنع انبعاث الروائح من الإبط، ولا يترك أي أثر في الثياب⁽⁴²⁾.

الملابس عنده:

وفي مجال الملابس وتفصيلها وتحديداتها، هدى زرياب أهل الأندلس إلى أن يلبس كل جنس ما يناسبه، فللذكر ملابس خاصة كما للمرأة ملابسها الخاصة، كما أن لكل فصل من الفصول الأربعة ملابسها وألوانها الخاصة التي تتناسب مع هذا الفصل، فالملابس ذات اللون الأبيض تلبس في المدة من آخر شهر يونيو إلى شهر

أكتوبر، ويلبسون في بقية أيام السنة الملابس الملونة، ويلبسون في فصل الخريف الملابس غير المبطنة (الخفيفة)، وفي فصل الشتاء يلبسون الملابس الثقيلة المبطننة لتقيهم البرد⁽⁴³⁾.

الأطعمة عنده:

وفي مجال الأطعمة وفنون طهيها وطرق تقديمها، نقل زرياب إلى الأندلس كثيرا من أصناف الطعام؛ منها: الطعام المعروف ببقلّة الهليون⁽⁴⁴⁾ المسماة الإسفراج، وهي نبات يكثر في بلاد الأندلس، يطبخ مع اللحم بشكل متقن؛ وهو مما يجعلها لذيذة الطعم، وفيه كثير من الفوائد الصحية؛ فهي مدرة للبول، وتقت الحصاة، وتتقي المثانة، كما نقل زرياب إلى الأندلس الطبخ المسمى التفايا أو النقاوى⁽⁴⁵⁾، الذي كان أهل الأندلس يفضلونه على بقية الأطعمة، وهو مصنوع بماء الكربرة الرطبة⁽⁴⁶⁾.

وقد وصل تأثير زرياب في أطعمة أهل الأندلس إلى مطابخ السلطان وموآئده، فقد ذكر ابن حيان بعض الأطعمة التي نقلها زرياب إلى موآئد السلطان فقال: "ينسب إلى صنعة زرياب من ألوان الطبخ المقدمة في مطبخ السلطان على موآئد الخاصة من التراثد المينة الملونة البديعة والوارد المطيبة الرفيعة، المدققات المدسوسة في الأشربة من خفائف اللحم ومطاييب الأطيار وأصناف الحلو السكرية والعسلية من الجوزين والوزين والقطايف المحشوة الفوانيز الرطاب الصلبة ومعقدات السكر المصعدات للتصوير المتخذات الأنقال والمشوات بالفتق والبندق وغيرها من رقائق الحلوة الملتدة..."⁽⁴⁷⁾.

إضافة إلى ما سبق ذكر ابن حيان أن زرياب اخترع في الأندلس طريقة خاصة لتقديم الأطعمة، وأنية خاصة بذلك، فكان يفضل أن يقدم الطعام في أنية من الزجاج بدلا من الأنية المصنوعة من الذهب والفضة، وفضل الفرش الأديمة اللينة الناعمة على الفرش المصنوعة من ملاحف الكتان، كما رأى أن تقدم الأطعمة على طاولة خشبية، يوضع عليها فرش مناسبة يسهل استعمالها وتنظيفها⁽⁴⁸⁾.

وفاته:

ذكر ابن حيان، وتبعه ابن دحية، أن زرياب توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين⁽⁴⁹⁾، ودفن بمقبرة الربيض، وقبره بها مشهور في حافتها بأولها، مما يلي الغرب على يسار المار بطريق القنانية، خلف السبيل المعترض لذلك الطريق، وكان عمره سبعين سنة وشهورا زائدة⁽⁵⁰⁾.

خاتمة:

تحرى هذا البحث كشف الدور الذي قام به زرياب في مجال الغناء والعزف، وتحديد أبعاد هذا الدور ودلالاته، وقد خلص إلى النتائج الآتية:

أولاً- ولد زرياب في بغداد سنة 173هـ، وعاش فيها حتى وفاة الخليفة الرشيد الذي سمع غناؤه وأعجب به.

ثانياً- أنه عرف بهذا اللقب بسبب سواد بشرته، وتشبيها له بطائر العمقق ذي اللون الأسود، والصوت الجميل.

ثالثاً- أنه ترك بغداد في خلافة المأمون، ولم يتركها في خلافة الرشيد، كما ظن بعض المؤرخين.

رابعاً- أنه حظي بمكانة مرموقة عند الخليفة الأموي الأندلسي عبد الرحمن الأوسط، حسده عليها الوزراء والكتاب والفقهاء.

خامساً- أنه كان نابغة في الغناء والعزف والموسيقى، وأكسب هذا الفن تطورات كبيرة.

سادساً- لم تنحصر إبداعاته في مجال الغناء والموسيقى، بل تعدته لتشمل الملابس والأطعمة، وما يتعلق بها، مما نقله إلى الأندلس أو ابتدعه فيها.

سابعاً- أن أهل الأندلس قد فنتوا به، فأخذوا يقلدونه في كل ما يفعله، وأن هذا التقليد قد استمر قروناً بعد وفاته.

- (¹) الطبري، محمد بن جرير (ت310هـ) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، بيروت (د.ت)، جـ8، ص657، سيشار إليه لاحقاً: الطبري، تاريخ؛ ابن حيان القرطبي (ت469هـ)، السفر الثاني من كتاب المقتبس، تحقيق: محمود علي مكي، ص309-310، سيشار إليه لاحقاً: ابن حيان، المقتبس؛ المقرئ التلمساني أحمد بن محمد (ت1054هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صائر، بيروت، جـ3، ص122، سيشار إليه لاحقاً: المقرئ، نفح.
- (²) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص332. يقصد بشهور زائدة أن عدد هذه الشهور يزيد عن ستة أشهر.
- (³) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت711هـ) لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة (د.ت)، جـ1، ص431، سيشار إليه لاحقاً: ابن منظور، لسان.
- (⁴) ابن حيان القرطبي، المقتبس، السفر الثاني، ص308-309.
- (⁵) طائر العمق من الفصيلة الغرابية على قدر الحمامة، وهو ذو لونين: أبيض وأسود، ومن هنا جاء تشبيه ابن الشمر الساخر لزرياب الذي كان قاتم السواد بالعمق إذا ظل مؤخرته وإبطه بمادة بيضاء، ولفظ شرار الوارد في النص هو الذي يعني المادة التي تحيل السواد إلى بياض (ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، حاشية ص333).
- (⁶) الباشق: طائر يستخدم في صيد الطيور، منها طير العمق.
- (⁷) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص333.
- (⁸) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، (د.ط) دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت)، جـ6، ص42، سيشار إليه لاحقاً: ابن عبد ربه، العقد.
- (⁹) المصدر السابق، جـ6، ص42-43.
- (¹⁰) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص309-310؛ المقرئ، نفح، جـ3، ص122.
- (¹¹) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص331-332.
- (¹²) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت808هـ) مقدمة ابن خلدون، ط5، دار القلم، بيروت 1984، ص428، سيشار إليه لاحقاً: ابن خلدون، مقدمة.
- (¹³) ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي القرطبي (ت367هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1989م، جـ2، ص83-84، سيشار إليه لاحقاً: ابن قوطية، تاريخ.
- (¹⁴) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص311-312؛ المقرئ، نفح، جـ3، ص122-123.
- (¹⁵) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص311-312؛ المقرئ، نفح، جـ3، ص122-123.

- (16) ابن القوطية، تاريخ، جـ2، ص83-84؛ ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص311-312؛ المقري، نفح، جـ3، ص122-123.
- (17) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص311-312.
- (18) ابن عبد ربه، العقد، جـ6، ص42-43.
- (19) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص313؛ المقري، نفح، جـ3، ص124-125.
- (20) الإدام: الجلد، الطعام المأدوم، وأديم كل شيء ظاهره، يقال أديم الأرض، وأديم الليل ظلمته. المعجم الوسيط، ط2، القاهرة (د.ت) جـ1، ص10-11.
- (21) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص325-328.
- (22) كان لزرياب ثمانية بنين وابنتان، وعليه يكون قدر ما أجرى عليهم (200) دينار شهريا.
- (23) المدى من المدّ: وهو مكبال قديم، اختلف الفقهاء في تقديره بالكيل المصري، فقدّرّه الشافعية بنصف قدح، وقدّرّه المالكية بنحو ذلك، وهو رطل وثلاث عند أهل الحجاز، وعند أهل العراق رطلان. المعجم الوسيط، جـ2، ص858.
- (24) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص325-328.
- (25) المصدر السابق، السفر الثاني، ص325-328.
- (26) ابن دحية عمر بن حسن (ت633هـ)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد وأحمد بدوي، راجعه: طه حسين، (د.ط)، مطبعة الكتب المصرية، القاهرة 1997م، ص147، سيشار إليه لاحقا: ابن دحية، المطرب.
- (27) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص313-315؛ المقري، نفح، جـ3، ص124-125.
- (28) ابن دحية، المطرب، ص147.
- (29) الطبري، تاريخ، جـ8، ص657.
- (30) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص325-328.
- (31) المصدر السابق، السفر الثاني، ص316.
- (32) المصدر السابق، السفر الثاني، ص311.
- (33) المصدر السابق، السفر الثاني، ص318؛ المقري، نفح الطيب، جـ3، ص126.
- (34) شدا، شدا: شدا، بالشعر وترنم وتغنى وحصل منه طرب، وشدا فلان تشبه بالشادي، المغني. المعجم الوسيط، جـ1، ص476.
- (35) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص324.
- (36) المصدر السابق، السفر الثاني، ص325.
- (37) المصدر السابق، السفر الثاني، ص329.
- (38) المصدر السابق، السفر الثاني، ص318.
- (39) المصدر السابق، السفر الثاني، ص318-319؛ المقري، نفح، جـ3، ص127.

- (⁴⁰) المصدر السابق، السفر الثاني، ص 319-320.
- (⁴¹) وهو ما يمكن أن نسميه بلغة عصرنا "مزيل العرق" الذي يستخدم لإزالة العرق من الإبط.
- (⁴²) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص 320.
- (⁴³) المصدر السابق، السفر الثاني، ص 323-324.
- (⁴⁴) الهليون: جنس نبات من الفصيلة الزنبقية، فيه نوع زراعي مشهور، يؤكل وتسميه العامة في مصر "كشك ألماس"، وفيه أنواع للتزين وأنواع بريّة يتبلونها ويستعملونها كالهليون الزراعي. المعجم الوسيط، ج2، ص 993.
- (⁴⁵) النقاوى: نبت له زهر أحمر.
- (⁴⁶) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص 323-324؛ ابن دحية، المطرب، ص 147.
- (⁴⁷) ابن حيان، المقتبس، السفر الثاني، ص 321-322.
- (⁴⁸) المصدر السابق، السفر الثاني، ص 323.
- (⁴⁹) المصدر السابق، السفر الثاني، ص 332؛ ابن دحية، المطرب، ص 147.
- (⁵⁰) المصدر السابق، السفر الثاني، ص 332.